

رياض بن يوسف

تطريز
على
جسدها

الثاقون

رياض بن يوسف

تطريز على جسدها

شعر

الفاون

■ ولد رياض بن يوسف في ولاية سطيف بالجزائر
العام 1973. يحمل دكتوراه في الآداب - جامعة
منتوري قسنطينة، 2010. صدر له في الشعر: «على
مشارف القصوى» (منشورات أمواج - الجزائر،
2005). وله دراسة نقدية قيد النشر بعنوان «أسئلة
الراهن وأجوبة الشعر: مقاربات سيميائية للقصيدة
الجزائرية المعاصرة».

© دار الغاؤون للنشر والتوزيع
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى، 2012

لبنان، ص. ب: بيروت - الحمرا 113 -
5626 تلفون: 71 573886 + 961
U.S.A: 17953 Hanna st.
Melvindale MI 48122
Fon:0013134361192

zeinab@alghawoon.com
www.alghawoon.com

أحبُّك

أحبُّك...
حتى يذوبَ القصيدُ
وحتى تصيح الرؤى:
لا مزيداً!
أحبُّك لا حبَّ
يعدُّ حبي
ولا نارَ مثل غرامي العنيدُ
أنا إن أقلّ فيك شعراً
فلغو،
فأنت القصيدة، أنتِ النشيدُ!

آذار 2005

على حافة الموعد

وردة

ضاع في ظلمتي عطرها

لحظة

ثم ضاع

وجفا حقلها قدمي

وأشاح بدوحه عني

فأين أُخبئ حزني

وأين سأزرع شعري

وأين سأنزع

وجهي - القناع؟!

وردةٌ

أنعشتُ خطوتي ووطنوني

وحين تهيأتُ

للرحلة اللؤلئيةِ

حين نشرتُ قلوعي...

جفَّ الهواءُ

وطار الشُّراعُ

وردةٌ هي...

شوكتُ دروبي إليها

ولا زلتُ أعدو إليها

إلى أن يلامسني العطرُ

أو ينقضي العمرُ

لا زلتُ أهرق حبرَ حضوري

وأحرق صبري المُضاعُ

وردةٌ لَوْنْتُ قَدْرِي
بتوارِيخها: لون عيني تَوَرَّدَ
دربي تَوَرَّدَ
مائي تَوَرَّدَ
خطوي تَوَرَّدَ
شعري تَوَرَّدَ
عمري تَوَرَّدَ...
يا وردةً جفَلْتُ من ظنوني
ومن لهفة الموج
يفنى وَيُنْشَرُ دوماً
على حافة الموعدِ
متى تحضنين يقيني؟
متى تسدين خطايَ
إلى سدرة الوردِ
والأرج الأوحِدِ؟
متى؟!

آذار 2005

مُثْنَى وَمفرد

من أين جاء بريق عَيْنَيْكَ؟
القمر صبَّ فيهما ضوءه،
فامتزج البياض والسواد
وكانتا.

عيناك ابنتا القمر،
عيناك قمران.

خدَّاك تفاحتان قضمت إحداهما نصفَ قلبي
وقضمت الأخرى
نصفه الآخر.

شفتاك كرزتان امتصَّتا كل عافيتي،
وكل حكمتي،
فلي عندهما ثأرٌ طويل.

نهداك أرجوحتان تعبثان بنظرتي الحائرة بينهما،
جيئةً وذهاباً.

ساقاكِ... إلخ

أتعبني تحالف الأثني والمُثنَّى
بينما وحدتي
لا تزال بصيغة المفرد.

2006

مِيلاد

أفلتت يدٌ مُحترزة مزلاجِ القفص
وسقط الجسد الميِّت.
هرب طائرُ الروح من قفص الجسد،
ارتجف جذلاً بعدما عانق الهواء للمرة الأولى،
وأوغل في جذل اللقاء بجناحين ظامئين.
هكذا، تلاشى رويداً رويداً
في زرقة الأجواء،
وأصبح بحجم السماء.

2005

غادة «سرتا»

أبصرتُ في عَيْنَيْكَ نخلَ بلادي
وقوافلاً تعنو لصوت الحادي
وصوامعاً خُضراً، وقلباً أبيضاً،
وملائكاً... يَشُدون بالأورادِ
أبصرتُ «سرتا» غادة عربيةً
ترمي، فتصمي صفوة الأكبادِ
وأنا هنا: جرحٌ توحدَ نبضه
حزني قديمٌ... مثلما ميلادي
فتتشتُّ فوق شقوق وجهي عن دمي
عن عِترتي، عن قِبلتي، عن ضادي
فرجعتُ مصلوباً على وجع اللُغى
أشدو، فيحرق وحدتي إنشادي
لكنَّ حزنك صار جرحاً ثانياً
يدمى وينزفُ في غيوب فؤادي
فلقد سمعتُ بكاء صخرِكِ والجسورِ
تنوحُ ولهى، وانتحابَ الوادي
فسألتُ هذا الليل: سرتا ما لها؟
تبكي وتُثخن بالجدادِ جدادي؟!

فأجابني صمْتُ الأديم بزفرةٍ
ذابتُ لها حُرقي، وذاب جِلادي:
«وقِعُ الخطى فوقِي غليظ جارحُ
يُدمي ويؤذي بالعقوقِ رقادي
الكلُّ خان، وكلُّ قومي قد نسوا
أن الأديمَ بقيَّة الأجدادِ»^(*)
ورأيتُ بين القومِ وجهاً أسمرًا
تُصغي خطاهُ لأنَّه الأجسادِ
كانت خطاكِ، وكنتِ «سرتا» أمسنا
فهمى الرذاذُ على فؤادي الصادي
يا وجهَ «سرتا»، يا بقية عطرها،
يا تَبَرها يا سحرها المتمادي
يا إرثَ باديسِ ويوبا في دمي
يا صخرةً نُقِشتُ بها أمجادي
أهواكِ، في حُبِّيكِ يُورق خاطري
وردًا، ويخبلُ بالنجومِ مِدادي
أهواكِ، لا لغةً تُقلُّ صبابتي
عجزًا، فحُبِّيكِ احتوى أبعادي

2006 - 2005

(*) لا تخفى الإشارة طبعاً إلى بيت المعرّي الشهير.

بعض من شمائل الورد

يأتيك في برعمه متيمًا
من ألف عامٍ
مُخضوضراً من خجلٍ،
مكتنزاً مثل الغمامِ
يخشى ويرجو
أن تفضَّ ختمه
تطلقَ أسر العطر
من ياقوته الأحمرِ
كي تأسره
في علبة من الرخامِ
تعلنُ موت السرِّ، ظافراً،
فينتهي السحرُ
ويبدأ الكلامُ

نيسان 2009

انتهاك

حُبُّكَ أعتق لغتي من سجنها،
فانطلقت تبحث عنك
مزحزحةً المُعترضات والفواصل،
قافزة على النقاط،
مُطأطئة رأسها تحت علامات الاستفهام،
مارقة برشاقة بين علامات التعجب،
مُتسلِّقة الألفات،
ومتأرجحة بين أغصان الطاء والظاء...
ما أمتع الرحلة!
خرجت أخيراً من أجمة الحروف
...
لمحتُ طيفك، قبَّلته بشفتين صامتتين،
فتلاشى.
لم أدرك أنني انتهكت شريعة الحلم.

اثنان

دربان:

دربُ من الأحزان يعرفني
ويستبيحُ خطايَ البكر... للكفنِ
ودربكِ اللولبي، الفظُّ، ضيِّعني
واغتال كل جهاتِ الحلم، غرَّبني

بحران:

بحر دموعِ ظلِّ يغرفني
وبحر عينيِّك، تاهتُ فوقه سُفني

دهران:

ليلٌ من الآلامِ والمحنِ
وصبحكِ الطفلُ
يأبى أن يرى مُدني

صخران:

هذي اللُّغى، أيانَ أحلبُها
وكبرياؤكِ
تُقصيني وتذبحني

صوتان:

نبضي المُدَمَّى باستفاقته
و«لاؤُك» الحَجَرُ المسنونُ أبُكمني

صمتان:

صمت القوافي حين أكتبها
وصمتك المُزدهي، كِبْرًا، على شَجَنِي

وفي المدى وردةٌ

«هل أنتِ صورتها؟»

أمضي إليها بروحٍ فارقت بدني

أمضي على خيطِ حلمي

نحو سُدْرَتِها،

عسى

سَيُصْبِحُ يوماً

ظُلُّها سَكَنِي

سجون

الجسد

سجن الروح،

الروح

سجن الرغبة،

الرغبة

سجن المعنى،

المعنى

سجن الرؤيا...

2010

حلول

عيناك،
قافلة النوارِ والزَّهرِ
عيناكِ بحرٌ رسا يوماً على ضَجْرِي
عيناكِ يا ألقى النائِي،
ويا ثمري الداني،
عُبابُهُما يغشى لحوني،
فيهمي أخضراً مَطْرِي

عيناكِ جَنَّةِ حلمٍ
عانقت سَقْرِي
عودي إليّ، نُفْتُقُ وجهه ملحمةٍ
من الغرام،
تُضاهي شعلة القمرِ
عودي،
فذي غمزات الغيب تدفعنا
إلى الحلول،
هلمّي، واسكني بصري!

مواجهة

تراكم سواد الحروف،
تحفّز على قوائمه،
مُتحدِّياً سواد القدر.

السوادان يُحدِّق أحدهما في الآخر كثورين،
لكن المعركة لن تبدأ أبداً
لأنها تقتصر على التحديق المتبادل.

2006

برقية إلى البيت الأبيض

يا بوش هَلِّ، واسْتَطِرْ فَرِحَا
ها الزهرُ والريحانُ قد دُبحَا
أثخنتَ في بغدادَ مُغْتَبِقاً
وطعنتَ في لبنانَ مُصْطَبِحَا
فازأرُ بأن الشمس قد سقطتُ
واصرخُ بأن البدرَ قد فُتِحَا
لن تسلبَ الأيامَ حكمتها
أو تكتبنَ ما اللهُ كان محَا
حيفا وبنْتُ جُبَيْلَ حجَّتنا
درسُ بعطر دماننا شُرحَا

تمّوز 2006

كيف تصنع وردة طبيعية؟

عليك أولاً
أن تعرف الطريق الغامض،
الساحر،
بين أرج الوردة وقلبك
وتحسن قطعه ذهاباً وإياباً
لكي تعود ومعك الأرج،
ولن تحصل على الأرج،
إلا إذا أحسنت غمس ريشتك
في طلع الوردة، حتى ترتوي،
ساعتها، يمكنك أن ترسم وردتك على الورق،
وأن تنتشيَ باستنشاق
القصيدة.

2006

المُزدان بدماء حقيقية

كُتبتُ هذه القصيدة باللغة الفرنسية
سنة 2003، ثم أُعيدت صياغتها بالعربية
صيف 2006، مع بعض التعديلات.

كدرويش يثوي وحيداً في الجبال،
حاملاً سُبحة الحروف،
أو أمير مجنون، مُعتكف في قصره النائي،
يتلو خاشعاً أسطورة الفارس الأول،
ثم يخرج من بين سطور كتبه المقدّسة
فارساً آخر،
ليشن غاراتٍ وهميةً
على الغيلان - الطواحين
لكنه يعود منها
مزداناً بدماء حقيقية.

ككل هؤلاء أنا،
أتيه في مساحات هائلة من الوهم،
لأملأ في النهاية
مساحة صغيرة من الورق.

رؤيا

طالما اکتنزتُ بتراب الوقت،
وتنفّستُ الرمل والغبار،
واعتراني النظر إلى الفراغ،
والاستماع إلى الصمت.
كان الحزن يأتيني من جهات شتّى،
من ذاكرةٍ قصيّة،
ومن نشرات الأخبار،
ومن سؤال لا يبلى،
وكان قلبي الأعزل
مصباحاً لحجيجه
المتّشحين برداء اللّغة.

كان الحزن يتسلّل إلى صوتي،
وثيابي وشرابي وحسائي،
وقصائدي التي لم يكن لها من حيلة
إلا أن تكون على صورة الحزن
مثلما لا حيلة لدم الأضحية
إلا أن يكون على صورة الجدول.

كنت، باختصار، أنتظرِكِ
في عماء الأمداء
على أرض موحلة.
وأخيراً،
وَمَضَتْ في سمائي الرمادية
غيمةً ضوئية غامضة على هيئة ملاك
واندلق المطر الضوئي غزيراً، عذباً،
على أزقتي
المليئة بوحل الانتظار.
انكشفت أورام
سرعان ما فقأتها زخاتُ المطر
... بصري اليوم حديد.

أيار 2006

تناس

يُدسُّ رأسه في المزابل الورقية،
يستنشق الحروف
بنشوة المتلصص على الأعراض
ويُخرج رأسه الأجرب
صائحاً، عفواً، نابحاً:

هَهَوَهُو هَهَوَهُوَهُو... حبيبٍ ومنزلٍ⁽¹⁾
هَهَوَهُو هَهَوَهُوَهُو... قليلٌ من المالِ⁽²⁾

يزهو على سكان الخيام
بأذنيه المستعارتين
وبارتياده الشارع الإفرنجي
الذي أسكن فيه رائحته الغربية،
هناك يُقعي
مُحدِّقاً في برج إيفل
ومائلاً مع برج بيزا
ومشرباً إلى تمثال الحرّية.

لكن الصدى يعود إليه جارحاً:
إذا ترحلت عن قوم، وقد قدروا
ألا تفارقهم، فالراحلون هم⁽⁴⁾.

2006

-
- (1) جزء من مطلع معلقة امرئ القيس.
(2) جزء من بيت لامرئ القيس يقول فيه:
ولو أنما أسعى لأدنى معيشة
كفاني، ولم أطلب، قليلاً من المال
(3) جزء من بيت شهير للمتنبّي.
(4) بيت شهير للمتنبّي.

ذاكرة

قلتُ لها وقد تأهَّبتُ لطقس أليف:
حبيبتي، لا تطفئي القنديل،
لا تلتحفي رداء السرير.
حدّقت فيّ بتساؤل بريء،
فقلت:

لقد علّمتني أيقوناتٌ عابرة
من ذاكرة الطفولة،
أن العري سرُّ جمال الملائكة.
ابتسمتُ وهيأتُ لي وليمة الذكرى.
عرّينا الغرفة أيضاً من كل أثاثها،
أليس العراء أجمل الأثاث؟
ثم تعرّينا من الوقت،
واحتضن الأزل الأبد.

أعراض

ساعات اليد
أغلال الوقت
التي تصفدنا.

الأحذية
قوالب لامعة
تمنع الأقدام من الطيران.

الأثواب
أجساد مستعارة
تخفي إعاقتنا النفسية.

العمارات الحديثة
زنزانات انفرادية
لغير المحكومين.

المدن الإسمنتية
غابات بديلة
تقيم فيها فصيلة حيوانية وحيدة.

الأقمار الصناعية
مرايا يرى فيها الكل وجوههم
إلا الشعراء.

الطباعة الأنيقة
جراحة تجميلية
لأصواتنا القبيحة.

الهاتف
بورصة منزلية
تحصي أسعار الحنين،
وتضطرنا إلى ادّخار أشواقنا كل مرة.

الأسر العصرية
قبائل جديدة تسكن الشقق الضيقة
بدلاً من الخيام المفتوحة على الأفق.

الوجوه المُعلَّبة في التلفاز
هي كالسردين المعلَّب
لا ترانا ولا تسمعنا.

تلك بعض الأعراض الجانبية...
لداء اسمه الحضارة.

خبة

كانت شهوتي راعفة،
نازفة كبركان،
جموحة كحصان راعه - في وحدته - ذيلُ فرس طروب،
مسنونة كرمح ظامئ لجهة ما،
متفاقمة، لزجة كزبد ينطح صخر الشواطئ،

...

ولكنك عرفت كيف تقتلين تدفقي،
كيف تحقنين احتقاني،
كان زرك الخفي،
نظرتك القزحية، التي تُلون الكلمات،
وتجرح الصمت بنصالٍ وردية،
قالت لي إحدى تلك النظرات:
«لستَ رجلي، لستُ امرأتك».
فتوقف الزمن.

ضجر

تكدّست هنا وجوهي
وانتفى ما أدّعي
لا لست شاعراً، ولا
شيءٍ سوى الوهم معي
سلالة من ضجرٍ
هذي اللّغى في أضلعي
نحتّها أو نحتّني
من ظنون موجعٍ
صارخة بصمتها
على البياض الأنصع
كأنما كتبّها
بالماء، أو بالأدمع

27 كانون الأول 2007

خيانة

رأيتها ترتدي كلماتي،
وتُغري بها سواي.

...

نسيتُ أنني من لَوْنَتْ شعرها،
وكحَلْتُ أهدابها بإثمد الحبر،
وكوَّرتُ مفاتها،
فهربت من سطوري،
وأصبحت كلما رأنتني تجفل منِّي،
وتسرع إلى امتطاء صهوة الريح.

طرقت الباب

إني طرقتُ هناك الباب ولهانا
فصدّني عاتباً: لا تأتني الآن،
أذاك من غنج؟ كلا فلا غنج،
لكن نسيْتُ، ومن ينسى الذي كانا؟
كنا، وكانت حُمياً الكأس ثالثنا،
تنوب عن حالنا نطقاً وتبياناً
أحسو قراح الهوى من كأسه مدداً
لا أرتوي أبداً، أو أهجر الحانا
«كنا سكوتاً» فلا صوتٌ ولا كلمٌ
إلا الهوى ناطقاً حقاً وإيقاناً
أهفو إلى يده أنا فتلمسني
لمساً رقيقاً، كأن اللمس ما كانا
هناك ينطق سُكري من صبابته،
وأدّعي الشعر تزويراً وبهتاناً

وإذ أفيق أرى كأسِي وقد فرغت
ملأى، فأنكس منه الطرف خجلانا

...

أكان ما كان؟ لا ما كان، بل كانا
وكنْتُ في موعد الرحمن سكرانا
أواه! أنتَ مراد القلب، كعبته،
فارفق بمن قد أذقت الهجر ألوانا
قد عاد، بعد منام عابر، حُرْقاً
من اشتياق، فما ولى وما خانا
أذقه من بعضِ بعضِ الكأس، ثانية
وخلّه والهوى، يجرعه إدمانا

...

صرنا، وصارت حُمياً الكأس ثالثنا
ما بين حاءٍ وباءٍ، سوف تلقانا

وحشة

ذهبَ الرفاق،
فتقلَّصَ الظل،
وأصبحت مرايا الوقت من حجرٍ،
فأدركتُ ساعتها حقيقةً بسيطةً:
ليس المجنون فقط من يُكلِّم نفسه،
الوحيد أيضاً.

2005

كلكم مثلي

إلعنوني،
واشتموني،
واقذفوني بالمجونِ
بالجنونِ
وانزعوا أوراق هذا التوت عني.
اشنقوني في عناوين الجرائدُ
واصلبوا عرضي على عودِ القصائدُ
أرجموني بالسطورِ
واجعلوا ذكري قذى
يجرح آذان العصورِ
من أنا، ماذا أكون؟!
لستُ إلا عاشقاً تيممه الطرفُ السقيمُ
لاهثاً خلف الحريمِ
تائهاً في نظراتٍ قزحيَّة
وشفاهٍ قرمزيَّة
وحدود قانياتُ
ورموش حالكاتُ
فالعنوني، واقذفوني بالخصال الموبقاتُ

لست وحدي،
كلكم مثلي عبيد الشهوات
فالعنوا أنفسكم،
ثم العنوني.

1992

لندا

لندا، زرعْتُ على رباكِ جنوني
ملحاً وعشقاً من بحار فنوني
قد ضعتُ دهرًا وانحنى دربي إلى
عينيك، فانفتحت هناك جفوني
أهواك، أنتِ قصيدتي منظومة
بمداد قلبي لا بحبر ظنوني
أهواك، لا لغة لحلمي غيرها
فلتقرئها في التماع عيوني

لندا زرعْتُ على ذراكِ وسائدي
حلمًا، ووردًا من حقول مواجدي
فلتقطفي بعض الذي أهديته
من لهفتي وغصون شعري الناهدِ
منكِ القصيد ومن يراعي نظمه
يا لوحةً تزهو بأروع شاهدِ
فتبختري فوق الحقول، ورفرفي
فوق الغيوم، وحلّقي بقصائدي

تطريز على جسدها

كانتِ الشمس الوحيدة في أفقي،
وكنْتُ شبق البرواق
إذ احتفز لعناق الأشعة
وحين سال الشعاع،
على جسده الفجّ المغبرّ،
بكي ابتهاجاً بميلاد اللون،
فاخضلّ عوده بالندی،
وطفق يسرد مآثرها، بذلاقة المنخطف،
لآذان الوقت الذي توقف:
لا غرو أن تكون قصيدتي، وأغنيتي،
فهي زبرجد الزرقة الأصيلة
التي جادت، ذات يوم،
على صفحتي السماء والبحر.
لا غرو أن يُسيّجني حضورها،
فهي انبثاق أعصابي الكليلة من مغارزها
وصحوة ضجري العتيد،
من حلمه الوثني.

لا غرو أن أشمخ بحدائي،
تحت أفويق نهديها،
ومن ذا يعجب لزهو التُّويج
إذ يُذرذِر الطَّلُحُ فوقه
ما تيسَّر من غباره؟!

هي دماثة العسلوج،
وكبرياء الآبنوس،
فلا غرو أن تحتقب الذَّكَّرَ
صهوةً الأنثى.

...

وحين فرغ المنخطف من تطريز خاصرتها،
لمعت عيناه بوهج الامتنان،
ولم يدرِ الوقت أهو امتنانها أم امتنانه؟
لكنه سرعان ما تذكَّر عاداته القديمة فمضى، بعيداً،
ينشد استراحة أخرى.

المحتويات

7	أحبك
8	على حافة الموعد
11	مثنى ومفرد
13	ميلاد
14	غادة سرتا
16	بعض من شمائل الورد
17	انتهاك
18	اثنان
20	سجون
21	حلول
22	مواجهة
23	برقية إلى البيت الأبيض
24	كيف تصنع وردة طبيعية
25	المُزدان بدماء حقيقية
26	رؤيا
28	تناص
31	ذاكرة
32	أعراض

35	خيبة
36	ضجر
37	خيانة
38	طرقت الباب
40	وحشة
41	كلكم مثلي
43	لندا
44	تطريز على جسدها

وقصائدي التي لم يكن لها من حيلة
إلا أن تكون على صورة الحزن
مثلما لا حيلة لدم الأضحية
إلا أن يكون على صورة الجدول.

أتعبني تحالف الأثنى والمثنى
بينما وحدتي
لا تزال بصيغة المفرد.

رأيتها ترتدي كلماتي،
وتفري بها سواي.

